

بدأت الفتوحات الإسلامية علي الجانب الرومي مبكرة عن تلك التي دارت علي الجانب الفارسي . وكتب الكثير عن تلك الفتوحات ، وخاصة في الفترة من بداية القرن الثامن ٧٠٠م إلي منتصف القرن العاشر ٩٥٠م ، وهي الفترة المؤثرة للغزوات الإسلامية . إلا أن الفترة الباكورة . النصف الأول من القرن السابع . هي الأجدر بمزيد من الدراسة والبحث لما تمثله من ركيزة لعمليات الفتح ، وما تبينه من طبيعة العلاقات بين الدولة الإسلامية الناشئة وجيرانها من الفرس والروم . وكان الفرس في قمة نشاطهم الحربي ، في الوقت الذي عمل فيه الروم علي إحداث تغييرات عسكرية للجيش الإمبراطوري . بدءا من عهد طبريوس وموريس . بعد قرون من الركود . ولا ريب أن الإمبراطورية البيزنطية (الروم) لم تكن في حالة انهيار عندما واجهت المسلمين في تلك الفترة .

كما تعطينا أحداث تلك الفترة أيضا صورة حقيقية للمقاتل المسلم ، ومفهومه عن الحرب ، وفكره العسكري ، تغاير كل المفاهيم التي عكستها كتابات تقلل من شأن ذلك المقاتل الذي بدا فوزه وانتصاره . في تصورهم . وكأنه جاء بالصدفة . وإن أعادت بعض دراسات جادة الأمور إلي نصابها فهي قاصرة عن بيان القيمة الحقيقية للقادة وخططهم الحربية وتحركاتهم في ميادين القتال . وفي هذه الدراسة نحاول استجلاء طبيعة الحياة العسكرية وفن الحرب والنظم الحربية علي الجانبين الإسلامي والرومي (البيزنطي) في مرحلة الصدام المبكر . أيضا معرفة ما أحدثته الفتوحات الأولية علي كل من الإستراتيجية والتكتيك للروم .

اشتقت كلمة إستراتيجية Strategia من لفظة Stratos أي الجيش و Strategos أي قائد الجيش وهي تعني فن القيادة ، علي العكس من المفهوم الحديث للكلمة " فن وتقنية استغلال كل المصادر المتاحة لتحقيق أهداف الحرب " ^(١) . والواقع أن كلمة إستراتيجية تغير مدلولها عبر العصور ، فصارت تستخدم علي المستوي المدني أيضا كما هو معلوم . غير أن مدلول الإستراتيجية العسكرية ظل يعني ليس فقط استخدام القوة ، بل التهديد باستخدامها أيضاً . ولا تهتم الإستراتيجية العسكرية بالحرب فحسب ، وإنما التهديد بنشوبها . بينما تعني كلمة تكتيك علم الحركة في الحرب أي أن التكتيك هو إستراتيجية فن الحركة ، والتسلح ، وحركة الجيش . أما الدعم اللوجستي ، فهو ما يتعلق بالإمداد والتموين أو ما تمثله إدارة التنظيم والمهمات .

ولم يكن الأمر سهلا دوما بالنسبة لقادة الروم وبيزنطة وحكومتها في التفرقة بين الإستراتيجية والتكتيك . حيث تفيدنا المصادر والأبحاث العسكرية الخاصة بتلك الفترة أن الاثنين كانا كلا لا يتجزأ . ومهما يكن من أمر ، فإن ما يعيننا هو مدي التغيير الذي أحدثته الفتوحات الإسلامية علي كل من الإستراتيجية والتكتيك للدولة البيزنطية أو دولة الروم .

عرض تاريخي

الروم أو البيزنطيون ، هم سكان القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، تلك الإمبراطورية التي قسمها الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩١ م بين ولديه هونوريوس الذي كان القسم الغربي من نصيبه ، وأركاديوس الذي تولى القسم الشرقي . ولم يكن يعني بذلك فصل الإمبراطورية ، فالعقيدة السياسية الغالبة تقول



الإستراتيجية والتكتيك بين المسلمين والروم "الصدام المبكر"



د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
جامعة الباحة - المملكة العربية السعودية



fathyaziz7@gmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فتحي عبد العزيز محمد ، الإستراتيجية والتكتيك بين المسلمين والروم: الصدام المبكر - دورية كان التاريخية -

العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠ . ص ٨ - ١٥

(www.historicalkan.co.nr)



السيف لتغرق القدس في الدماء ، بعد مقتل ما يتجاوز التسعين ألفاً من سكان المدينة . ويبدو أن ذلك الرقم مبالغ فيه . وهناك رقم آخر ذكره الراهب انطاكيوس ستراتيغوس الذي كان شاهد عيان لما جرى ، حيث ذكر بعد وصفه لهم بالخنازير البرية وهي تنقض علي المدينة المقدسة ، وقد ملأ الجو زئيرهم وفحيحهم أنهم قتلوا كل من وجدوه بل ودون الإبقاء علي حياة النساء والأطفال ، فبلغ عدد القتلى حسب تقديراته ٦٦٥٥٥ شخصاً^(٥) .

ويبدو أن الأحوال كانت مواتية تماماً للفرس ، فلم تتوقف الجيوش الفارسية عند ذلك الحد ، بل تقدم أحد جيوشها مخترباً آسيا الصغرى حتى وصل سنة ٦١٥ إلي مدينة كريسوبوليس المواجهة للقسطنطينية . في الوقت الذي تقدم فيه جيش آخر نحو مصر ، حيث فقدت الإمبراطورية باستيلاء الفرس عليها أكبر مورد للقمح^(٦) . وحدثت ضائقة اقتصادية في القسطنطينية بسبب ذلك . في الوقت الذي انقطع فيه عن هرقل كثير من الموارد البشرية التي كانت توفرها له البلقان والشام ومصر^(٧) .

ويمكن أن يعزو أمر تلك الكارثة إلي الوضع العام الذي كانت عليه الإمبراطورية قبل عام من تولي هرقل الحكم . حيث تولي إمبراطورية نصفها في أيد أجنبية ، وخزانة مستنفدة ، ورعايا تدنت أخلاقياتهم ، وإدارة مدنية سيئة السمعة . وفيما يتعلق بالجيش فالموقف أسوأ ، حيث كانت رواتب الجند تتأخر أو تتوقف ، وذلك حسب وضع الخزانة الإمبراطورية . ومفهوم أن تلك الظروف تضعف عزيمة الجند للقتال ، وتجبر الأباطرة علي الاتجاه لجلب المرتزقة الأجانب غير الموثوق بهم . أيضاً كان ذلك الموقف هو الذي أتاح للأفار ومعهم البلغار والسلاف اجتياح البلقان التابعة للروم بسهولة ، وسمح للفرس . كما رأينا . بالتقدم والتوغل في أراضي الإمبراطورية^(٨) .

ولاشك أن وضعاً مثل ذلك ، كان حرباً به أن يبعث اليأس في قلب الإمبراطور الذي فكر جدياً في ترك القسطنطينية والتوجه إلي قرطاجنة ليس بأساً من مواجهة الفرس كما قد يتبادر إلي الذهن وإنما ليتخذ منها قاعدة ، وتدعمه أسرته الحاكمة هناك . والواقع أن تغيير العواصم كان موروثاً تاريخياً ، فقد نقل بعض الأباطرة عاصمة حكمهم من روما إلي أماكن أخرى ، مما دفع بهرقل لمثل هذا التفكير^(٩) . خاصة بعد أن فقد جانباً كبيراً من العمق الاستراتيجي للدولة في جانبها الشرقي .

ولأول مرة كان علي الإمبراطورية أن تدافع حقاً من أجل البقاء . وبالحاح من البطريك سرجيوس بطريك القسطنطينية الذي ناشده البقاء قرر هرقل التراجع عن موقفه . ولأن الإمبراطورية في حاجة ماسة إلي المال ، فقد دفع سرجيوس إليه بأموال وكنوز الكنيسة . ويبدو أن ذلك كان قرصاً ضخماً حيث شمل معظم ذهب وفضة الكنيسة^(١٠) . ولأجل استنهاض معنويات البيزنطيين صبغت المواجهة مع الفرس بصبغة دينية . لقد صارت حرباً دينية خاصة وأن الفرس عند مهاجمتهم بيت المقدس استولوا علي الصليب المقدس عند المسيحيين . كما قتلوا وأسروا الرهبان والقساوسة وكان بطريك بيت المقدس من بين الأسرى . لقد كانت أول حرب شنتها بيزنطة بدافع الحماسة الدينية ضد الفرس عباد النار .

هادن الإمبراطور هرقل كل من السلاف والآفار ليتفرغ لتلك الحرب ، وتمركز هرقل في الأناضول مع ما تبقى من الجيش الرئيسي ، وجيوش تراقيا ، وأرمينيا ، والشرق ، وأعد عدته للهجوم . بدأ هرقل

بإمبراطورية عالمية واحدة . لذلك كانت المراسم في أي من القسمين تسري في القسم الآخر ، إلا أنه وبمضي الزمن تباعد القسمان . وتعرض القسم الغربي للوقوع في أيدي الجماعات الجرمانية التي مزقته إلي ممالك تعاقبت في حكمه ، بينما ظل القسم الشرقي متماسكاً . وعرف باسم الإمبراطورية الرومانية ، في الوقت الذي أطلق عليه المؤرخون المحدثون اسم الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ، أو الشرقية ، ثم الإمبراطورية البيزنطية .

وتجدر الإشارة إلي أن الإمبراطورية البيزنطية لم تعرف في زمنها بهذا الاسم . وكان مصطلح بيزنطي يستخدم بالفعل للدلالة علي قاطني القسطنطينية فقط ، تلك المدينة التي شيدها قسطنطين علي أنقاض بيزنطة القديمة علي مضيق البوسفور ، لتكون عاصمة للإمبراطورية بدلاً من روما . وأطلق عليها روما الجديدة ، في الوقت الذي أبت فيه إلا أن تحمل أسمه ، بينما صار الاسم القديم بيزنطة يدل علي حقبة طويلة استمرت ألف ومائة عام هي عمر الإمبراطورية البيزنطية . ولقد ظل رعايا الإمبراطور في القسطنطينية يشيرون إلي أنفسهم علي أنهم رومان Rohomaioi . تمسكاً بالمجد الروماني التليد . كما وصفهم القرآن الكريم بهذا الوصف . حيث جاء ذكرهم في سورة باسم الروم . " **الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** " . وهو ما عرفهم به العرب أيضاً .

وإذا كان القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية تعرض لقوي فتكت به ، فإن القسم الشرقي (الروم البيزنطيون) كان طيلة الوقت في مواجهة تحد دائم من قبل جيرانه صغرت أم كبرت قوتهم . فعلي الجانب الشرقي وهو ما يهمنها كان الفرس ، ومن بعدهم القوي الإسلامية ... ناهيك عن باقي الجوانب . مما فرض علي الإمبراطورية استراتيجية معينة ترتكز علي محورين : ففي مواجهة جيرانها كان عليها أن تعمل من أجل البقاء ، فالجيران منهم الأعداء ومنهم من يحتمل عداوته . أما المحور الثاني هو العمل علي تحقيق عقيدتها السياسية الرامية علي المدى البعيد لاسترجاع ما فقدت في الغرب من أراضي . بيد أن ذلك الهدف الاستراتيجي . أي المحور الثاني . كان بعيد المنال ، خاصة خلال القرنين السابع والثامن اللذان يوصفان بأنهما عصور بيزنطية مظلمة . فالإمبراطورية لم تعد قادرة علي التمسك بدفاعاتها في مواجهة الضغط الخارجي^(١٢) ، ففي خلال سنوات قليلة استولي السلاف والبلغار في أوروبا علي أجزاء واسعة مما كان يعرف سابقاً بيوغوسلافيا ، وبلغاريا ، وشمال اليونان ، والبلغار . بينما أخذت تضعف سيطرة الإمبراطورية البيزنطية علي شبه الجزيرة الإيطالية^(١٣) حيث تركت لمقتسميها .

كانت بالفعل كل تلك الأعمال بداية فترة مظلمة في تاريخ الإمبراطورية . وكان أخطر تلك الهجمات أثراً ما دار علي الجانب الشرقي لدولة الروم وهو الغزو الفارسي ، وما تلاه من فتوحات إسلامية . فقد قام الفرس الساسانيون ، بعد اعتلاء هرقل (٦١٠ - ٦٤١) العرش الإمبراطوري بعام - أي في سنة ٦١١ م - بمهاجمة الإمبراطورية البيزنطية^(١٤) . حيث قاد الملك الفارسي خسرو الثاني قواته التي اخترقت الحدود الفاصلة بين إمبراطوريتهم والإمبراطورية الرومانية . وقاموا بغزو شرق الأناضول ، فاستولوا علي أنطاكية ، ثم دمشق ومنها إلي قليقية ، وطردها البيزنطيين من أرمينيا . وجاءت الطامة الكبرى باستيلائهم علي بيت المقدس سنة ٦١٤ م ، وذلك بعد حصار دام لأكثر من ثلاثة أسابيع ، فجعلوها طعمة للنيران ، وأعملوا في أهلها

وقادة الشعوب إلى الإسلام^(١٦). وأدى بالتالي إلى تغير جذري في الإستراتيجية الإسلامية.

ومهما يكن من أمر ، فإن سرية مؤتة لها قيمتها من حيث الفكر العسكري أو الإستراتيجية والتكتيك الحربي ، فمن الناحية الإستراتيجية كانت محاولة لتأديب عرب الشام وإرهابهم. أما الناحية التكتيكية فكانت مثالا للمرونة وسرعة التحرك وفق الإمكانيات المتاحة. لقد فوجئ المسلمون بقوات الروم ولم يكن ذلك في حسابهم. وكان عليهم العمل سريعا. بدءاً من الموقع الذي رآوه مناسباً كميدان قتال ، فالموقع الذي اختاره المسلمون للقتال كان حصيناً ، حيث الحواجز الطبيعية التي يمكن لهم التحصن بها أمام الأعداد الكبيرة لقوات العدو. وكان علي القائد الذي اسند له اللواء بعد استشهاد زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحه أن ينقذ المسلمين ويقلل عدد الخسائر. فقام خالد بن الوليد بعمل تكتيكي يدل علي المرونة وسرعة الحركة والقدرة علي خداع العدو. حيث عدل نظام الجيش ، بأن جعل مقدمته ساقه ، وساقه مقدمته وميمنتها مسيرته وميسرته ميمنتها فأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم وقالوا: قد جاءهم مدد. وبذلك أمكن للقائد ، وما يمكن أن نسميه فن القائد أن يرجع إلي المدينة دون أن يجرؤ العدو علي مطاردته.^(١٧)

وإذا كان مدلول الإستراتيجية يعني استخدام القوة ، أو التهديد باستخدامها. فإن التهديد باستخدام القوة والقدرة علي فعل ذلك بدا جلياً في غزوة تبوك في العام التاسع للهجرة. حيث علم الرسول صلي الله عليه وسلم أن الروم تجمعوا في جنوب الشام وقد انضمت إليهم بعض القبائل العربية. وكان لابد من التهديد باستخدام القوة "ففي رجب من هذه السنة أمر النبي صلي الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم ، وأعلم الناس مقصدهم لبعده الطريق ، وقسوة العدو. وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة وري بغيرها"^(١٨). ويتبين لنا مما ذكره أبو الفدا كيف كان يأمر للغزو والتجهز للقتال ، كما بين لهم مصاعب الطريق وقدرة العدو ليعدهم معنوياً لهلاقة عدو لا يستهان به.

وسمي الجيش بجيش العسرة لجذب البلاد وشدة الحر ، ومما تذكره المصادر ما يبين لنا طريقة التمويل والإمداد وهو ما يعرف حالياً بالدعم اللوجستي. فقد أمر النبي صلي الله عليه وسلم المسلمين بالنفقة ، فأنفق أبو بكر الصديق جميع ماله ، وأنفق عثمان نفقة عظيمة قيل كانت ثلاثمائة بعير طعاماً ، وألف دينار ، وروي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال لا يضر عثمان ما صنع بعد اليوم دلالة علي عظمة الإنفاق في سبيل الله^(١٩).

وخرج الرسول صلي الله عليه وسلم ومعه ثلاثون ألف مقاتل ، وأما الخيل فكانت عشرة آلاف ، ولقوا في الطريق من المصاعب الكثير حيث شدة العطش والحر. وبلغ الرسول صلي الله عليه وسلم تبوك ، وأقام بها عشرين ليلة. وهنا التساؤل ، ما الدافع لهذه الغزوة في وقت شديد الصعوبة علي المشاركين فيها؟ ولماذا لم يتم قتال بين المسلمين والروم؟ وما النتائج التي حققتها؟. لقد تنامي إلي علم الرسول الكريم ما كان يعد له الروم وحلفائهم ، لذا تطلب الأمر مواجهة التهديد. الذي يمثل ذلك التكتل ضد المسلمين. دونما إبطاء أو توان ، حتى يتبين للأعداء أن المسلمين قادرين علي الردع الحربي. ولقد انسحب الروم وأتباعهم ، قبل أن تصل قوات المسلمين ، فقد وصلتهم المعلومات عن ضخامة جيش المسلمين وارتفاع معنوياتهم ،

الحرب ضد الفرس في أبريل سنة ٦٢٢ ، وأمكنه أن يحرر آسيا الصغرى من سيطرة الفرس. وفي عام ٧٢٧ م تمكن من مهاجمة الفرس في داخل بلادهم. وحدث الصدام بين الجيشين في مقابل نينوى بالقرب من الموصل شمالي العراق ، وكان النصر حليفاً له^(٢٠).

لقد بينت أحداث الصراع الفارسي الرومي مدي مقدرة هرقل الحربية الفائقة ، كذلك قدرته علي التخطيط الجيد. وحق له أن يسعد بانتصاره علي الفرس. بيد أن السعادة لم تلازمه طويلاً ، فما استرده في بضع سنين ، فقداه أيضاً في بضع سنين في محاربه المسلمين الذين أحدث قادتهم انقلاباً في التاريخ العسكري في عالم العصور الوسطى. وهذا ما نبغي ، وما سنعرض له.

لم يكن المسلمون في يوم من الأيام دعاة حرب ، بعكس تلك الصورة التي حاول بعض المستشرقين تسويقها عنهم. ولأن الإسلام دعوة إلي الناس كافة في كل زمان ومكان ، فإن الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ، قام بعد صلح الحديبية بإرسال الرسل إلي الملوك والأباطرة يدعواهم بدعاية الإسلام. وكتب معهم كتباً مؤداها الترغيب في الإسلام ، فبعث الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي إلي هرقل ، فلقبه في بصري بالشام ، وقيل في بيت المقدس. ورد هرقل علي الرسالة رداً حسناً ، وقال لحامل الرسالة : "عندما يسلم به أقرب الناس إليه نري رأينا"^(٢١). ومن هنا بدأت العلاقة بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام.

كانت البداية إذن بين الجانبين محاولة لهد يد السلام وعرض رسالة الإسلام. ولا ريب أن علاقات المسلمين بالروم علي مر العصور لا يمكن أن يكون لها إلا هذا المدخل الطبيعي ، ولا يمكن أن تفهم علي وجهها الصحيح بمعزل عن منبعها الأول وهو عصر النبوة^(٢٢). لقد كانت كتب الرسول دعوة للإسلام ، ولحسن الجوار والعلاقات السلمية. بيد أن الفساسة. حلفاء البيزنطيين الذين كانوا بمثابة إمارة حدودية عربية عازلة بين الروم وباقي الجزيرة العربية. كانوا سبباً في قلب الموازين. فقد استقبلوا كتب الرسول بصورة عدوانية وقاموا بقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث رسول الله إلي حاكم بصري ، كما قتل فروة بن عمر الجذامي عامل الروم في معان عندما أعلن إسلامه. وبعد ذلك العمل عملاً عدائياً ، وبمباشرة إعلان للحرب^(٢٣). وعندما علم الفساسة بمقدم المسلمين إليهم لعقابهم (سرية مؤتة ٥٨هـ / ٦٢٩م) جراء ما اقترفوا في حق مبعوث الرسول سارعوا باستعداد البيزنطيين عليهم. لقد أشعل عرب الشام فتيل القتال بين المسلمين والروم.

ومن هنا بدأت العلاقة التي أراد لها الرسول الكريم أن تكون علاقة سلام بينما أراد لها الروم أن تكون علاقة حرب وعدوان. وبمعركة مؤتة بدأت الحرب بين الدولتين ، أو العداء. وليس عداء أو تنافس بين عقيدتين كما ذهب المؤرخ نيكول حيث ذكر أن الرسول صلي الله عليه وسلم كان يعتبر المسيحيين حلفاء ، ولكن فقط بعد صدام أتباعه مع القبائل العربية المتحالفة مع بيزنطة في مؤتة فإن أصحاب العقيدتين صاروا متنافسين^(٢٤). وهذا القول فيه تجن ، حيث نظر الإسلام إلي النصراني علي أنهم أقرب مودة ، بيد أن ما فعلته القبائل المسيحية شمال الجزيرة العربية ضد المسلمين تجاوز تلك المودة وكان السكوت عليه يعني تهديد أمن الدولة الإسلامية الناشئة.

وتجدر الإشارة إلي أن ذلك المسلك من قبل الروم اصطدم بإستراتيجية الدولة الإسلامية الناشئة في جانبها السياسي ، حيث كانت تعتمد في الأساس علي أساليب الإقناع من خلال دعوة الحكام

وقد عارض الخليفة الحل الثاني بشكل قاطع. فالعودة إلى الجزيرة غير واردة ، وفتح بلاد الشام قد بدأ ولا تراجع عنه ، ويجب تدعيمه.

وأمام ذلك الموقف المعقد كان لابد من عمل سريع. قرر الخليفة أبو بكر الاستعانة بخالد بن الوليد الذي خاض معارك من نوع المعارك الكبرى في مواجهة الفرس ، ولخبرته تلك فهو مناسب لقيادة الألوية في الشام. لقد كان استدعاء خالد إلى الشام ضرورة قدرها الخليفة خاصة بعد أن تمكن خالد من إنجاز المرحلة الأولى من مهمته بفتح الحيرة. وكانت المدائن هي المرحلة الثانية والأخيرة من تلك المهمة. كما أضعف فتح الحيرة قوة الفرس ولم يعد بإمكانهم التدخل في العمليات الحربية بالشام إن فكروا في توحيد جهودهم مع الروم للإطباق علي المسلمين. لذلك كان ممكناً أن يتوجه خالد إلى الميدان الذي يحتاج دعمه. ولا يعني ذهاب خالد إلى الشام ترك الجبهة الفارسية بلا تواجد إسلامي ذا شأن. فقد أمر الخليفة بأن يترك خالد نصف قواته بها تحت قيادة المثنى الذي خلفه في العراق.^(٢٣)

واجتاز خالد بادية الشام في وقت قياسي ونزل علي بصري الحصينة وعليها أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، واجتمعوا عليها حتى فتحها الله علي المسلمين ، فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر. كانت أولي ثمار انضمام خالد إلي جيوش الشام ، كما رأينا ، الفوز ببصري. وجاء دور أجنادين ، حيث كانت قوات الروم محتشدة في أعداد كبيرة بأجنادين. وخشي خالد أن تسارع تلك القوات بتقييد حركته ومنع تقدمه ، لذلك عمل علي إجهاد أي محاولة من هذا القبيل. وكتب إلي قواده بالتجمع عند أجنادين ، وحشدت القوات الإسلامية علي مسافة ميل من قوات الروم ، وبلغ عددها حوالي اثنين وثلاثون ألف مقاتل. وبدأ يستطلع أخبار القوات الرومية لجمع المعلومات عنها. وفي صباح الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٣هـ ، بدأ في التحرك في تشكيل مفتوح علي مسافة خمسة أميال حتى لا يعطي فرصة للعدو من الالتفاف حول قواته. استمرت المعركة يومان لم تكن نتائجها الأولية في صالح المسلمين غير أن خالد دفع بقوات الاحتياط التي تمكنت من قتل قائد الروم ، وعندها تفرق شمل الروم.

كان هرقل يتابع الموقف من حمص ، وعندما علم بهزيمة قواته أدرك أن جيوش المسلمين لن تتوقف عند هذا الحد ، فعمل علي الإعداد لمعركة الحسم وإبادة الجيوش الإسلامية وطردها من الشام نهائياً. وقد حاول جر جيوش المسلمين بعيداً عن الصحراء التي تمثل مسرحاً جيداً للحرب بالنسبة للمسلمين وهو ما لم يتم. وكان عليه ليحقق هدفه بعدما لم يتمكن من استدراج المسلمين أن يحشد أكبر عدد من الجند ليهاجم. وكانت معركة اليرموك ٦٣٦م.

اختلفت آراء المؤرخين حول طبيعة تلك المعركة ، وخطة كل من الطرفين فيها. فهل كانت خطة الروم دفاعية أم هجومية ، والعكس بالنسبة للمسلمين هل كانت خطتهم هجومية أم دفاعية. ولا شك أن الروم لم يكن أمامهم غير الهجوم خاصة بعد تلك الهزيمة الكارثية في أجنادين ، وكان بإمكان الروم علي الرغم من هزيمتهم أن يحشدوا أعداداً أكبر فدولة الروم بما لها من إمكانيات كانت قادرة علي أن تتجاوز هزيمة في معركة مهما كانت آثارها. بينما لجأ المسلمون لا إلي الدفاع فحسب ، بل إلي الدفاع والهجوم معاً. الدفاع أولاً لاستنزاف أكبر

مما استلزم من جانبهم مزيد من الإعداد^(٢٠). وإذا لم يحدث الصدام إلا أن تلك الغزوة أثمرت. فقد حدث خلال إقامة الرسول صلي الله عليه وسلم بتبوك أن صالحه أهلها كما أقبلت إليه الوفود من آيلة وغيرها ، وصالحوه علي دفع الجزيرة. ومن تبوك أوفد الرسول صلي الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلي دومة الجندل فأستولي عليها ، وأسر حاكمها. اهتم الرسول صلي الله عليه وسلم بالحدود الشمالية ، وما قد تمثله من خطر علي الدولة ، فأعد في العام الحادي عشر من الهجرة جيشاً لمحاربة البيزنطيين وعين له أسامة بن زيد ، إلا أنه توفي قبل أن يتحرك الجيش. غير أن الخليفة أبو بكر الصديق أنفذ الجيش وعلي رأسه أسامة لمحاربة الروم كما أراد الرسول الكريم. خرج أسامة مع غرة ربيع الآخر سنة احدي عشر للهجرة ، حتى وصل تبوك فلم يجد أحداً ، عندها قرر العودة ، وعند وصوله استقبله أبو بكر الصديق^(٢١).

بدأت المعارك في عهد الخليفة أبي بكر في صورة المعارك الكبرى ، فبعد أن عاد أبو بكر من الحج ، بدأ يفكر في فتح الشام. كانت بلاد الشام أرضاً جميلة ، وهي أجمل أقاليم الإمبراطورية البيزنطية آنذاك فمناخها معتدل بتأثير البحر المتوسط الذي يلطف حرارة الصحراء وبرودة الأجواء الشمالية. وكانت أنطاكية عاصمة المناطق الآسيوية من الإمبراطورية وتأتي بعد القسطنطينية في البهاء والأهمية السياسية. وكانت بلاد الشام سياسياً تتكون من إقليمين إقليم سوريا وهو يمتد من أنطاكية وحلب في الشمال وحتى الجزء الأعلى من البحر الميت. ويضم الأماكن المقدسة للأديان السماوية ومدناً لا تقل غني ومدنية عن سائر مدن العالم وكان العرب في ذلك العصر يتحدثون عن إقليم الأردن والذي يقع بين سوريا وفلسطين ولكن هذه المنطقة يمكن اعتبارها إقليماً من الناحية الجغرافية فقط وليس من الناحية السياسية أو الإدارية. وهذه الأقاليم جميعها تابعة للروم. لذا فإن فتح الشام يعني الكثير للقسطنطينية.^(٢٢)

لقد كان فتح الشام ضرورة فرضتها التهديدات المتكررة من قبل الروم وجيرانهم من القبائل العربية المتحالفة معهم. وبالتالي فإن تأمين الحدود الشمالية كان أمراً فرضته الأوضاع عند تلك الحدود. وتوجهت وفقاً لهذا المطلب الاستراتيجي أربعة جيوش إلي الشام يقودها أشهر قادة المسلمين. الجيش الأول بقيادة أبي عبيدة وتوجه إلي حمص ، الجيش الثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان وتوجه إلي دمشق ، الجيش الثالث بقيادة شرحبيل بن حسنة وتوجه إلي الأردن ، أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمر بن العاص وتوجه إلي فلسطين.

عندما انطلقت ألوية المسلمين من المدينة ، تلقى جيش الروم معلومات التحرك بواسطة العرب النصارى. وعندما أخبر بها هرقل أدرك أن هذا التحرك هو محاولة جادة لفتح إمبراطوريته. وكان أخطر ما بلغه - بعد ذلك بوقت قصير - هو هزيمة قوات التغطية الرومانية التي أرسلت إلي أجنادين علي يد اللواء الذي كان في طليعة جيش المسلمين ، لذلك قرر أن ينزل العقاب بهؤلاء المهاجمين. وبناء علي أوامره بدأت مجموعات كبيرة من جيش الروم في التحرك إلي أجنادين من الحاميات المنتشرة في أنحاء سوريا وفلسطين. وقد تزايدت الحشود الرومية وعلم بأمرها المسلمون. وتم إبلاغ الخليفة بالأمر ، بدأ الموقف سيئاً ، كان الروم يحشدون قواتهم في جيش واحد كبير لخوض معركة هجومية شاملة في الميدان. وليس أمام المسلمين إلا أن يختاروا حلاً من اثنين: إما الحرب ضد الروم في معركة من الثبات ، وإما الانسحاب السريع إلي الجزيرة العربية ، وهما حلان غير مناسبان للتفكير بشأنهما.

والضرورات الاستراتيجية التي تواجدت في ميدان القتال . لقد كانت حركة هرقل من فلسطين إلى أنطاكية حركة منطقية وسليمة من وجهة نظر عسكرية ، ولم تكن هروبا من مواجهة المسلمين . لقد أظهر ذلك التحرك قدرة هرقل علي تقييم الموقف تقييما سليما . وإن جاء ذلك متأخرا ، بل وعلي حساب خسارة معركة أولي هي أجنادين . أما في اليرموك فإن ما قدره الرجل من تكتيك لم يتورط فيه المسلمون كما رأينا . كان فن القيادة وإدارة المعارك أقوى في المعركتين من جانب المسلمين .

القيادة :

قادة الجيوش الرومية في مرحلة الصدام المبكر

ترجع شهرة القادة إلي ما حققوه من انتصارات ، وليس لما لحق بهم من هزائم ، وذلك أمر بديهي غير أن هرقل بلغ شهرته بما حقق من نصر وبها لحق به من هزائم . لقد كان شخصية مأساوية ، علي الرغم من شجاعته . فهو أول إمبراطور يقود جيوشه بنفسه منذ أجيال ، ولأنه ألقى بكل ألقابه الإمبراطورية واتخذ لنفسه في العام ٦٢٩ لقب باسيلوس الذي كان يلقب به الحكام الإغريق وذلك ليزعم بالحق الإلهي في الحكم حيث قامت الدعاية لحروبه علي خلفية دينية كما سوق دعائه الحروب التي خاضها علي أنها حروبا دينية ليلهب حماسة جيوشه . ولعل تلك الشهرة التي اكتسبها هرقل أقلقت المسلمين لكنها لم تقف في عضدهم بل زادتهم إصرارا . وعلي الرغم من أنه كان قائدا قديرا فإنه كان يميل إلي الشك كثيرا . مما كان يدفعه إلي التدخل في سير الأحداث اليومية للعمليات ، وإن لم يكن حاذقا في هذا الشأن . وإذا كانت أكبر انجازاته هو استرجاع ما فقدته الإمبراطورية في عهود سابقة بل وفي عهده أيضا ، فإن مأساته الكبرى هو فقدان جانب كبير من الإمبراطورية أمام القوي الإسلامية الناشئة . ويشير المؤرخ ستيفن رنسيما إلى أن السنوات التي أعقبت وفاة هرقل كانت أحلك أيام التاريخ البيزنطي ، ذلك أن فتوحات المسلمين لم تتوقف وهجماتهم لم تنقطع^(٢٨) .

ومن بين القادة الروم في فترة الصدام المبكر يأتي تيودور القربلاط أخي هرقل والمعروف عنه قليل . لقد كان القائد العام الذي قاد الروم في أجنادين وهو قائد متمرس قاد عددا من الحملات ضد جيوش الفرس في الشرق ، وتصوره المصادر الإسلامية علي أنه شخص عدواني طائش . وكثيرا ما تجاهل تيودور تعليمات الإمبراطور بخصوص انتظار الإمدادات والتعزيزات . وقد أبعد هرقل إلي العاصمة القسطنطينية بعد كارثة أجنادين .

أما القائد تيودور ترثوريوس Theodore Trithourios فهو الذي قاد جيوش الروم لطرد المسلمين نهائيا من الشام عام ٦٣٦ م ، وهزم في معركة اليرموك^(٢٩) . وكان وزيرا للمالية ، عمل علي رفع معنويات الجند بسبب تخوف هرقل منهم فيما يتعلق بسداد رواتبهم . أما فاهان فكان قائدا ميدانيا للقوات الرومية في اليرموك ويعتقد أنه من أصول أرمينية ، وبلي هرقل في المسؤولية الحربية عن القوات الرومية في الشام .

قدر ممكن من قدرات العدو ، ثم انتهز الفرصة المناسبة للهجوم الخاطف .

وبالفعل تؤكد الأعداد الكبيرة لقوات الروم وتنظيمها القتالي أنها في تشكيل قتالي هجومي بينما اعتمد خالد بن الوليد خطة من مرحلتين الأولى دفاعية لاستنزاف قدرات العدو ، ثم انتهز الوقت المناسب للهجوم . حيث ابقى لذلك الوقت جزءا من قوات الخيالة تعمل علي هذه الغاية^(٢٤) . وهو ما حقق له النصر بفضل الله . ويعتبر ذلك نصرا تاريخيا تفوق فيه الفرسان المسلمون خفيقي الحركة والذين برعوا في حرب الصحراء علي القوات الرومية الثقيلة البطيئة الحركة^(٢٥) .

لقد بينت تلك المعركة طبيعة التكتيك العسكري الجيد لدي الجيش الإسلامي . وكيف عمل علي تحريك القوات في الوقت الملائم وبالشكل الذي يمكنها من تحقيق الإستراتيجية المستهدفة . فقد تمكن المسلمون في سنوات قليلة من بدء تكوين الدولة الإسلامية من امتلاك بصري الحصن المهم علي حدود بيزنطة ، والاستيلاء علي دمشق ، بل أن سوريا كلها صارت في أيديهم في عام ٦٣٦ . كما أصبحت فلسطين إقليها عربيا مع ٦٣٧ أو ربما عام ٦٣٨ ، بعد استلام المسلمين للقدس ، وأجبر الروم علي مغادرة مصر بعد ذلك بقليل^(٢٦) . لا ريب أن هزيمة الروم أمام الجيوش الإسلامية متعددة الأسباب وتعود في بعض منها إلي الجانب البيزنطي ، من بين تلك الأسباب عدم الكفاءة ، والفتور وسخط الجند ، وإجراءات الدفاع غير الكفوة إن الإستراتيجية التقليدية التي اتبعتها بيزنطة في وضع خططها القتالية اعتيادا علي الأعداد الكبيرة للقوات في إطار معارك كبرى لم تمكنها من تحقيق أي فوز . كما أن التكتيك الذي حاولت فرضه علي الجيوش الإسلامية لم ينفذ علي أرض الميدان بل كان الميدان أكثر ملائمة للجيوش الإسلامية خفيفة الحركة التي تجيد حرب الصحراء .

الإستراتيجية والنكتة في الصدام المبكر

لا نختلف كثيرا مع المؤرخ نيكول فيما ذهب إليه من أن الغزوات الإسلامية أصابت بيزنطة بالمفاجأة ، بل يمكننا القول أنها ضربت الإستراتيجية الرومية في الصميم . فهم . أي الروم . كسبوا لتوهم حربا مكلفة ضد أعدائهم التقليديين ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود أما قوة حربية ناشئة وربما يعزو ذلك إلي أن آلاف السنين عبر التاريخ علمتهم ألا يتوقعوا خطرا من الجزيرة العربية^(٢٧) . ولعل ذلك يفسر ما يذهب إليه البعض بالقول بأن الروم لم يعطوا كثير اهتمام ، أو ربما لم يهتموا بالمسلمين ظنا منهم أنهم جماعة من رجال الصحراء يرغبون بالسلب والنهب . ومثل أولئك أمرهم يسير متروك للمناطق الحدودية الموالية للدولة البيزنطية .

كذلك نظر الروم إلي الإسلام نظرة خاطئة فظنوه نحلة من النحل أو بدعة جديدة . لكن رسالة الرسول صلي الله عليه وسلم إلي هرقل كانت كفيلا بإعلامه بالحقيقة وتزيل أي لبس أو سوء ظن . وبينما كان اندفاع الروم بتحريض من القبائل الحدودية سببا في تورط الروم في حرب واستعداد المسلمين . فإن سوء تقديرهم للأحداث علي الأرض بدا واضحا . بدا ذلك واضحا في أجنادين وحينها كان هرقل في حمص . ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لهرقل مما دفعه إلي إعادة النظر في استراتيجياته الحربية ، والتركيز في أنطاكية . وقد حاول بعض المؤرخين تفسير الأمر علي أنه هروب من جانب هرقل ، لكن ذلك يجانب الواقع ، ولا يمكن القبول به . فعندما قرر هرقل مغادرة فلسطين إلي أنطاكية فإن ذلك كان بسبب المستجدات العسكرية

قادة الجيوش الإسلامية في الفترة المبكرة من الصحاح

كانت أولى المعارك كما رأينا هي معركة مؤتة ، وهي تدل علي شجاعة المقاتلين ، وقادتهم ، وقائدهم الأعلى الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ، لقد قاد بنفسه جيشه لغزو الروم في تبوك. وقد قاد الجيش في ظل ظروف صعبة ، ولفت أنظار المسلمين إلي ضرورة تأمين الحدود الشمالية لدولة الإسلام عندما علم بتجمع الروم مرة أخرى في تبوك ، فأعد لإرسال حملة بقيادة أسامة للتأكيد علي هيبة الدولة الجديدة.

بينما أخذ الخليفة الراشد أبي بكر الصديق بعد أن فرغ من حروب الردة في مواصلة التصدي للفرس والروم معا. وكان يتمتع بحس حربي مرهف سواء علي الجبهة الفارسية أو الرومية ، خاصة عندما نقل خالد بن الوليد من الحيرة إلي الشام ، في وقت كانت القوات الإسلامية تخوض معركة مصرية. لقد كان أبوبكر علي معرفة دقيقة بقدرات كل قائد من قادته.

وكانت الإستراتيجية التي اعتمدها أبي بكر الصديق في فتح بلاد الشام هي الاستيلاء علي أكبر جزء ممكن منها ، ولأنه كان يجهل حجم قوات الروم فإنه عندما أرسل الجيوش الأربعة أولا وقبل أن يلحق بهم خالد بن الوليد عمل علي عدم دعم جيش علي حساب الآخر. فهو يعلم أن جيوش الروم ستكون غفيرة كثيرة العدد ، لذا أمر قادته أن يحرسوا علي التماس فيما بينهم حتى إذا تعرض أحدهم لخطر يمكن للآخر مساعدته. كما أمر أن يتولي القيادة أبو عبيدة الجراح في حالة حشد جميع الأولوية^(٣٠).

أما الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد كان عالي الهمة ويتمتع بمهارة حربية فائقة وإذا كانت الفتوحات قد بدأت في عهد سلفه فإنه قاد حركة التوسع الكبرى والفتوحات. وتمتع بشخصية حازمة تجاه قادته مما حقق الانضباط في جيوشه. قام كذلك بإنشاء ديوان للجند حيث تسجل فيه أسماءهم ، وأعطيتهم (رواتبهم) ، كذلك أقام جيوش الأمصار. كما عمل علي توفير الخيول للقوات المحاربة حيث كان العجز واضحا في تلك الخيول في البدايات الأولى للدولة الإسلامية ، غير إن فتح الشام وهو منطقة توجد فيها تربية الخيول ، وفر متطلبات الجيش بهذا الخصوص.

ولدينا خالد بن الوليد ويصفه المؤرخ ديفيد نيكول بأنه أحد العظماء في مجال التكتيك العسكري عبر التاريخ^(٣١) وإن كان يستحق ذلك الوصف فإن ما جاء علي لسان الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم بأنه سيف الله المسلول لا يعدله وصف أو لقب فالقتال هنا في سبيل الحق لأجل الحق. وإلي جانب أولئك القادة كان هناك أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من أصحاب المهارات الحربية.

التكتيك البيزنطي

تمتعت القيادة البيزنطية بعقلانية كبيرة مع انضباط أقل ، وقد أولت القيادة التدريبات اهتماما أكبر ، ولدينا كتاب باسم *Strategikon* عن التدريبات التي علي الضباط معرفتها ، قد تعود كتابته إلي الفترة المبكرة من عهد الإمبراطور هرقل. لقد اعتمد الجيش الرومي علي قوات مدربة تدريبيا عاليا خفيفة الحركة ومجهزة بشكل جيد . وكان الجانب الأكبر من تلك القوات هم الفرسان والمشاة الراكبة

المسلحة بالحرب والسهم والسيوف والدروع . غير أن ما يعيب مثل تلك القوات عندما تخرج للحرب هو حاجتها أن تعسكر علي مساحات واسعة كبيرة . إلي جانب شهور عدة تحتاجها قوات النخبة المتواجدة في العاصمة القسطنطينية للتحرك إلي فلسطين . أما القوات المحلية فإنها تفرض في تحركها أعباء علي السكان المحليين من ميرة ومأوي . وبعد زحف طويل فإن القوات والدواب تكون بلا شك في حاجة إلي راحة طويلة . ويلاحظ أن الجيش الرومي لم يكن مكتفيا ذاتيا ، وإنما اعتمد علي خطوط إمداد مكشوفة ، وكان الجيش يعتمد علي الخيالة الخفيفة في المناطق الخطرة وفي الليل فإن الاستحكاكات الميدانية تقام باستخدام عربات التموين ، وتأوي الخيول إلي مكان يعد لها . ووفقا للكتاب المشار إليه *Strategikon* فإن العربات التي تحيط بالمعسكر يقوم الرماة بحمايتها طوال الليل ، ومن خلفهم فراغ بعمق ما بين عشرة إلي خمسة عشر متراً ، يليه خيام المشاة الثقيلة ، ثم الفرسان يلي ذلك فراغ كبير في الوسط.

ولقد أمدتهم حروبهم مع الفرس بخبرة توقع مواجهات واسعة. وأن عليهم قدر الإمكان تجنب المعارك الكبرى. معتمدون في ذلك علي حرص القيادة واستبدال الأمر بالكمان ، وتكتيك حرب العصابات. واعتمد الروم في سوريا وفلسطين علي الدفاع في العمق المدعوم بقوات صغيرة سريعة الحركة لإضعاف العدو.

التكتيك الحربي الإسلامي

عكس التكتيك الإسلامي في الفترة المبكرة . إلي حد ما . مؤثرات رومية وفارسية مع الاعتماد علي الإبل لنقص في الخيول . وكان رماة السهام من المشاة الفرس يتقدمون في نظام متدرج لإطلاق وابل من السهام وفقا للأوامر يتلوها فوضي ومن المحتمل أن المسلمين اتبعوا نفس الطريقة وعرف رماة السهام الفرس بالسرعة التي يطلقون بها سهامهم بينما العرب استخدموا مثل البيزنطيين سهاما ثقيلة وأقل سرعة.

وكانت جيوش المسلمين في تلك الفترة صغيرة العدد تقوم علي الاكتفاء الذاتي لذا لم تكن تعتمد علي طرق إمدادات طويلة وتميزت علي أعدائها بحركتها السريعة. كما كانت لا تتورع عن العمل داخل عمق مناطق العدو ، واشتهر العرب بمقدرتهم علي الانسحاب السريع إلي الصحراء لخبرتهم السابقة بها من عمل بالرعي ومعرفة بموارد المياه. استخدمت المشاة الراكبة الإبل للتمتع بالحركة السريعة. بينما كان الخيالة يحملون خيول الحرب علي ظهور الجمال حتى أرض المعركة. وكانت سرعة المسلمين إستراتيجية أكثر منها تكتيكية. كما كان بإمكانهم التلاؤم مع المعوقات الطبيعية مثل الجبال والمستنقعات والأنهار ورمال الصحراء. وفيما يتعلق بالدعم اللوجستي فإنهم استخدموا الدواب المختلفة في النقل ، وعلي الرغم من مقدرة الجمال علي حمل المؤن فإن البغال كانت مناسبة في مناطق الجبال.

عناصر الجيش البيزنطي

تشكل الجيش الرومي إبان القرن السادس من عناصر ثلاث: الجند المحليون ، إلي جانب البرابرة ، والسيماخوس *symmachoi* وهي وحدات من أعراق مختلفة . وكان الإمبراطور موريث مهتما بالتسليح الجيد للقوات ، كما كانت تلك القوات تختبر في استعداد سنوي للتأكد من قدراتها القتالية ، وقد تزايدت أعداد الجند المحليون أثناء محاربته للفرس^(٣٢) . لقد عمل الإمبراطور موريث علي إعادة تنظيم الجيش

ومنطقية محسوبة. والهدف الرئيسي هو تأمين بقاء الإمبراطورية وفق إستراتيجية تتيح استغلالاً أمثل للموارد المتاحة والمحدودة نسبياً. لقد كانت الضرورة إذن وراء توجهات بيزنطة الدفاعية^(٣٥).

الإستراتيجية الإسلامية

وضع الخليفة عمر بن الخطاب قواعد السلوك الحربي لقواته والتي ترجع في أصولها إلى القرآن الكريم وهي تعادل ما نسميه الإستراتيجية. وكان يتم التخطيط جيداً للأعمال العسكرية. ويتجمع المتطوعون من القبائل المختلفة، وهم هنا يعملون في جيش منظم وليس في معارك قبلية، وكانت القوات تتجمع في منطقة بعينها. غالباً ما تكون المدينة المنورة العاصمة الأولى للدولة الإسلامية. قبل أن ترسل تلك القوات إلى حيثما قرر الخليفة. وقد جبل الجند المسلمون على الطاعة لولي الأمر وفق تعاليم القرآن الكريم.

أثر الفتوحات الإسلامية على الجيوش الرومية:

الإستراتيجية والنكبة

لا شك أن المواجهات والمعارك على الجانب الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية، كان لها الأثر الأكبر في تغير الفكر الحربي سواء الاستراتيجي أو التكتيكي للروم. لقد تطور الفكر الاستراتيجي لمواجهة احتياجات اللحظة. فقد كانت الوحدات الحربية منذ القرن السادس وحتى الفتح العربي تعسكر في حاميات بطول الحدود وخلفها وتعرف باسم Limitanei "جند الجبهة" frontiers soldier. وكانت تشكل عادة من الألوية القديمة والتشكيلات المساعدة. بينما كانت جيوش الميدان تضم وحدات مشكلة حديثاً، وتقيم في الأقاليم وفي الغالب فيما وراء الحدود، وفق أسس إستراتيجية حيث يمكنهم من تلك المناطق مواجهة أي عدوان على الأراضي الرومانية. لذا اهتمت بيزنطة بمناطق الحدود وما عرف باسم الثغور أو الثيمات أو البنود، وهي مناطق تتواجد فيها ألوية عرفت باسم المكان المتواجدة فيه.

كما يلاحظ أن المواجهة الشاملة أو المعارك الكبرى لم تعد مناسبة في التعامل مع جيوش المسلمين، لقد أفرز الفتح العربي الإسلامي للمناطق الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية تغيرات يعتد بها. بعد فشل محاولات البيزنطيين في طردهم من خلال معارك مفتوحة وكان التحول الكبير في إستراتيجية الروم هو تحاشي أيه مواجهة مفتوحة. فبعد هزيمة الروم في اليرموك عام ٦٣٦م كان عليهم الانسحاب أولاً إلى شمال سورية وأرض الجزيرة. وبعد فقدان الأخيرة، وبعد أن صعب عليهم الاتصال بحلفائهم من القبائل العربية غير المسلمة والفرس والذين كان التحالف معهم له شأن تراجعت القوات الرومية إلى خط طوروس وطوروس الداخلية^(٣٦). وكان جعل جبال طوروس على الدوام الحد الفاصل للتصدي للمسلمين والحد من توسعهم يستدعي تجميع طاقات الإمبراطورية كلها. وعلي الرغم من الجهود المبذولة في هذا الصدد فإن جيوش المسلمين ما انفكت على الدوام تعبر تلك الجبال إلى آسيا الصغرى^(٣٧). إن النتيجة الملموسة هي انسحاب القوات الميدانية من المناطق التي كانت تعمل بها في سوريا، وفلسطين وأرض الجزيرة إلى الأناضول للاحتماء بها، وفق إستراتيجية جديدة.

لقد تراجعت كل الجيوش الميدانية إلى المناطق الداخلية خلف خطوط مواقعها الجغرافية الأولى، ويلاحظ أن المناطق الجديدة التي تراجعت إليها تلك الجيوش متخذة منها قواعد لها كانت تختار وفق

وهناك وصف لذلك النظام الجديد حيث كانت الوحدة هي السرية التي يعبرون عنها بأسماء منها Numerus، arithmos، tagma. وكانت السرية مكونة من ثلاثمائة أو أربعمائة جندي يقودهم رائد Comes أو تريبون Tribune. فإذا اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثماني تكون منها كتيبة Moira بقيادة قائد كتيبة Moerarch أو دوق Dux. وكان الروم يحتفظون بسر الأعداد قصداً حتى لا يستطيع الأعداء تقدير حجم الجيش. وكان تجميع السرايا من اختصاص القائد العام عندما تدور رحى الحرب ولم تكن هناك فرق مستديمة، إلا فرق مرتزقة الجرايات والجند المحالفين والجند المختارين وهم بقايا المرتزقة الأجانب الذين كانوا يشكلون جانباً من الحرس الإمبراطوري. وكان الجيش الذي أعاد موريس بناءه هو الذي اقتاده هرقل إلى ساحات المعركة بعد إعادة تشكيله^(٣٨).

وقد أعاد هرقل نظام توريث الخدمة العسكرية على الرغم من أن ذلك استلزم وقتاً ومالاً وتعطيلاً للاقتصاد المحلي حتى يمكن تشكيل القوات الجديدة. لذلك وجدت بيزنطة من الأسهل تجنيد العرب المتحالفين حيث هنالك شك متوارث حول إخلاص الأرمن.

مع نهاية القرن السادس لم يكن الفرق كبير في المكانة بين وحدات الجيش البيزنطي، غير أن التاجما شكلت ما يمكن تسميته فرقة النخبة. وكان فرسان تلك الوحدة منحدرين من أصول قوطية شرقية وهم القوط الذين طردهم الغزاة اللبارد من إيطاليا، واستقروا داخل الإمبراطورية. وقد تركزت عناصر تلك القوة في بيثينا شمال غرب الأناضول. وهم يشكلون عصب الخيالة الثقيلة، وقد سلحوا على النمط الجرمانى. وكان التسليح مع بدايات القرن السابع بالنسبة للخيالة سيف طويل spathion مماثل لسيف الأفار أو الفرس، ورمح خشبي خفيف وقوس في حاملة سهام تتمكن من حمل أربعين سهماً. معلقة في سرج الجواد على النمط الفارسي، وكان أفراد المشاة الثقيلة يحملون سيوفاً أقصر، ومزاريق قصيرة^(٣٩).

عناصر الجيش الإسلامي

كانت الفتوحات الإسلامية الأولى تشن بواسطة محاربون متميزون، ومعروف أن كل الرجال المسلمون مطالبون بالتزام حربي. كما تشير كلمة جيش إلى ما يشبه القوة الشعبية. ويعني ذلك أن كل الرجال المسلمون قادرون على الالتحاق بالجيش.

الإستراتيجية البيزنطية

قامت إستراتيجية الإمبراطورية البيزنطية على أساس من إدراكها لوضعها الصعب تجاه أعداء، أو من يحتمل عدوتهم، موجودون بالفعل على أكثر من جبهة في وقت واحد. ولقد أدرك القادة والحكام البيزنطيون تماماً العلاقة بين نشر وإعادة نشر الموارد: جند، مؤن، معدات، دواب وما إلى ذلك وبين قدرة الدولة في صد أي عمل عدواني والانقضاء على المعتدين.

ومن الجدير بالذكر أن الدراسات العسكرية التي تمت فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين أوضحت أن هناك عدم توازن في الموارد بين بيزنطة وأعدائها. وقد نصح القادة بعدم خوض حرب في ظل ظروف غير مواتية لأن ذلك ربما قاد إلى خسارة في الأرواح والموارد. وكانت النغمة السائدة في تلك الكتابات أن تلجأ بيزنطة إلى المناورة واستخدام تكتيكات معرقله والكمائن وحيل إستراتيجية من هذا القبيل. كانت الأمور الحربية البيزنطية تدار وفق أسس راسخة،

قدرة تلك المناطق علي توفير الدعم اللوجستي والمتطلبات الأخرى.^(٣٨) كما اتبعت بيزنطة تكتيكاً جديداً وهو محاولة استنزاف قوات العدو حتى لا يبقوا طويلاً في الميدان. وضرب خطوط إمداداته وتسريب معلومات مضللة عن نوايا الجيش البيزنطي، واعتمدت علي الخيالة المدرعة الخفيفة في المواجهات من أجل التحرك السريع علي أرض الميدان.

الخلاصة

لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية دوماً في حالة حرب، علي واحدة من جبهاتها إن لم تكن أكثر، وكانت تعمل دوماً من أجل البقاء. واعتمدت في الجانب الأكبر من جيوشها علي الجند المرتزقة. وقامت استراتيجية الدولة علي أساس تجنب القتال قدر الإمكان. وقد أرغمت علي حرب ضروس مع الفرس في وقت كانت فيه الأوضاع علي جميع الأصعدة غاية في السوء والتدهور. بيد أن أخطر ما واجهته بيزنطة كان عدو غير محتمل، فهي لم تكن علي عدا مع أبناء الجزيرة العربية ولا تتوقع منهم خطراً كبيراً، إلا أن حلفاءها الغساسنة جلبوا عليها تلك العداوة والتي أدت إلي حدوث مواجهة بدأت في العام التاسع للهجرة ولم تنتهي إلا في العام ثمانمائة وثمانية وخمسون للهجرة عندما سقطت العاصمة البيزنطية القسطنطينية.

الهوامش

- 1 - Haldon, John: Warfare, State and Society in the Byzantine World, 565-1204. London. Publication Year: 1999. Page Number: 34.
- 2 - Haldon, John : Byzantium at War, p.13
- 3 - David Nicole , Romano — Byzantine Army (4th - 9th century) p.13
- ٤ - يبدو أن أسرة هرقل انحدرت من أصل أرمني، وتولي هرقل الكبير أبو الإمبراطور هرقل ولاية شمال أفريقيا في عام ٦٠٧، واشترك هرقل الكبير في مؤامرة ضد الإمبراطور البيزنطي فocas (٦٠٢-٦١٠) الذي كان عصره من عصور الانهيار العسكري والاقتصادي، وتمكن هرقل بفضل ما فعل أبيه من اعتلاء عرش بيزنطة في ١٥ أكتوبر ٦١٠، للمزيد أنظر: حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٦٠.
- ٥ - كارين أرمسترونج: القدس، مدينة واحدة وثلاث عقائد، ترجمة: د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، القاهرة ١٩٩٨، ص ٣٦٤.
- 6 - Warren Treadgold, Byzantium and its Army 284-1081, U.S.A. 1995, 19,
- ٧ - حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٦١.
- 8 - Clifford R. Backman, The Worlds of Medieval Europe, New York 2003, p.73.
- أنظر أيضاً: حسنين ربيع، المرجع السابق، ص ٦١.
- 9 - Edward D. Enhlsh, ed., Encyclopedia of the Medieval world. U S A 2005, p.341.
- 10 - Warren Treadgold, Op. cit, p.20.
- ١١ - محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية، ط ١، دار عين القاهرة ٢٠٠٧، ص ١٨٧.
- ١٢ - كانت رسالة الرسول صلي الله عليه وسلم إلي هرقل عندما دعاه إلي الإسلام: "من محمد رسول الله إلي هرقل عظيم الروم، سلام علي من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك

- مرتين، فإن توليت فإن عليك أثم الأريسيين، يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون" والأريسيون ليست كلمة عربية ويبدو أنها تعني الرعايا العاديين. انظر: حسنين محمد ربيع، المرجع السابق، ص ٦٥.
- ١٣ - للمزيد أنظر: عبد الرحمن أحمد سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم، القاهرة ١٩٩٧ ص ٦.
- ١٤ - عبد الرحمن أحمد سالم: المسلمون، ص ٧٩.
- 15 - David Nicolle, Yarmok 363 AD the Conquest of Syria, London 1994, p.16
- ١٦ - علي محمد المراشدة: اليرموك الإستراتيجية والحسم، الأردن ١٩٩٧، ص ٤٥.
- عبد الرحمن أحمد سالم: المسلمون، ص ٩٦.
- 18 - Ismael Abul — Feda, De Vita Mohammedis, A.D MDCCXXIII (1723), p.124.
- 19 - Ismael Abul-Feda, Op.Cit. p. 123.
- ٢٠ - محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ط ٦، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٤٠١.
- ٢١ - محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٤٠٧.
- ٢٢ - الجنرال أ. أكرم: سيف الله خالد بن الوليد، دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته، ترجمة: العميد الركن صبحي الجاني ط ٧، بيروت ١٩٩٤، ص ٣٤١.
- ٢٣ - لدينا نص الرسالة التي بعث بها أبي بكر الصديق إلي خالد بن الوليد: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عتيق بن قحافة، إلي خالد بن الوليد، السلام عليكم، أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي علي نبيه صلي الله عليه وسلم، سر حتى تصل جموع المسلمين في بلاد الشام، فهم في حالة كبيرة من القلق، وإنني أعينك قائداً علي جيوش المسلمين وأمر أن تقاتل الروم، وأنت القائد علي أبي عبيدة ومن معه. وأذهب أبي سليمان، وأتمم عملك بمعونة الله جل شأنه، واقسم جيشك قسمين، ودع النصف مع المثنى الذي سيخلفك في العراق. فإذا فتح الله عليكم الشام فارجع إلي عملك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ولا تتباطأ بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء". المراشدة المرجع السابق ص ١٥٥.
- ٢٤ - المراشدة: اليرموك، ص ٢٠٥.
- ٢٥ - محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٣.
- 26 - A.A.Vasiliev, Byzantine and Islam (pp. 308-326). p.309 in BYZANTIUM eds. Norman Baner & L. B. Moss, Oxford 1948.
- 27 - Nicolle, Rome s enemies 5, p.3
- ٢٨ - ستيفن رنسيهان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٩.
- 29 - David Nicolle, Yarmok . p.18.
- ٣٠ - جنرال أكرم: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٣٤٥.
- 31 - David Nicolle, p.19.
- 32 - Nicolle, Yarmok. p.24.
- ٣٣ - ستيفن رنسيهان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٦٢.
- 34 - Nicolle, Yarmok. , p. 34
- 35 - Haldon, Byzantine at war ,p.36
- 36 - Haldon, John, Warfare, State and Society in Byzantine World 565-1204, London 1990, p.71.
- ٣٧ - ستيفن رنسيهان: المرجع السابق، ص ٣٩.
- 38 - Haldon, warfare., p.31